

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتبويناً لشأنها ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾ أي هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لآخواتكم الفقراء ، ليعود نفع ذلك عليكم ويرجع ثوابه إليكم ، ثم قال جل جلاله ﴿إن يسألكموها فيحلفكم بخلوا﴾ أي يخرجكم بخلوا ﴿ويخرج اضغانكم﴾ قال قتادة : قد علم الله تعالى ان في اخراج الاموال اخراج الاضغان . وصدق قتادة فان المال محبوب ولا يصرف الا فيما هو احب الى الشخص منه . وقوله تعالى : ﴿ها انتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل﴾ أي لا يجيب الى ذلك ﴿ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه﴾ أي انما نقص نفسه من الأجر وإنما يعود وبال ذلك عليه ﴿والله الغني﴾ أي عن كل ماسواه وكل شيء فقير اليه دائماً ، ولهذا قال تعالى : ﴿وانتم الفقراء﴾ أي بالذات اليه ، فوصفه بالغي ووصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر ووصف لازم لهم لا ينفكون عنه .

وقوله تعالى : ﴿وإن تولوا﴾ أي عن طاعته واتباع شرعه ﴿يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا امثالكم﴾ أي ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره . وقال ابن ابي حاتم وابن جرير : حدثنا بونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، اخبرني مسلم بن خالد عن العلاء بن عبد الرحمن عن ابيه عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : ان رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿وإن تولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا امثالكم﴾ قالوا : يارسول الله من هؤلاء الذين ان توليتنا استبدل بنا ثم لا يكونوا امثالنا ؟ قال : فضرب يده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه ثم قال وهذا وقومه ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس ، تفرد به مسلم بن خالد الزنجي ، ورواه عنه غير واحد ، وقد تكلم فيه بعض الائمة رحمة الله عليهم ، والله اعلم .

آخر تفسير سورة القتال والله الحمد والمنة .

سُورَةُ الْفَتْحِ

قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا شعبة عن معاوية بن قره قال سمعت عبد الله بن مغفل يقول قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها قال معاوية لولا اني اكره ان يجتمع الناس عليه لحكيت قراءته ، اخرجاه من حديث شعبة به .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾

وَيُضْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾

زلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ ، من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صده المشركون عن الوصول الى المسجد الحرام فيقضي عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ثم مالوا الى المصالحة والمهادنة ، وان يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم الى ذلك على تكراه من جماعة من الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة ان شاء الله تعالى ، فلما نحر هديه حيث احصر ورجع انزل الله عز وجل هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة ومآل الأمر اليه ، كما روى ابن مسعود رضي الله عنه وغيره انه قال : انكم تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح صلح الحديبية ، وقال الأعمش عن ابي سفيان عن جابر رضي الله عنه قال : ما كنا نعد الفتح الا يوم الحديبية ، وقال البخاري : حدثنا عبيد الله بن موسى عن اسراييل عن ابي اسحاق عن البراء رضي الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كنا مع رسول الله ﷺ اربع عشرة مائة ، والحديبية بئر فترحناها فلم

ترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تغمض ودعا ثم صبه فيها فتركها غير بعيد ، ثم انها اصدرتنا ماشتنا نحن وركابنا .

وقال الامام احمد : حدثنا نوح ، حدثنا مالك بن انس عن زيد بن اسلم عن ابيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر قال فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد علي ، قال فقلت في نفسي : نكلك امك يا ابن الخطاب الحجت كررت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك ؟ قال : فركبت راحلتي فحركت بعيري فتقدمت مخافة ان يكون نزل في شيء ، قال فاذا انا بمناد يا عمر ، قال فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء قال : فقال النبي ﷺ «نزل علي البارحة سورة هي احب الي من الدنيا وما فيها» **«إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر»** ، ورواه البخاري والترمذي والنسائي من طرق عن مالك رحمه الله ، وقال علي بن المدني هذا إسناد مدني جيد لم جده الا عندهم . وقال الامام احمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن قتادة عن انس بن مالك رضي الله عنه قال : نزلت على النبي ﷺ **«ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر»** مرجعه من الحديدية . قال النبي ﷺ **«لقد انزلت علي الليلة آية أحب إلي مما على الأرض»** ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا : هنيئاً مريئاً يا نبي الله بين الله عز وجل ما يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه ﷺ **«ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار - حتى بلغ - فوزاً عظيماً»** اخرجاه في الصحيحين من رواية قتادة به .

وقال الامام احمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا مجمع بن يعقوب قال : سمعت ابي يحدث عن عمه عبد الرحمن بن زيد الأنصاري ، عن عمه مجمع بن حارثة الأنصاري رضي الله عنه ، وكان احد القراء الذين قرأوا القرآن قال : شهدنا الحديدية فلما انصرفنا عنها اذا الناس يتفرون الأباقر فقال الناس بعضهم لبعض : ماللناس ؟ قالوا : اوحى الي رسول الله ﷺ فخرجنا مع الناس نوحف فاذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم **«إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً»** قال : فقال رجل من اصحاب رسول الله ﷺ أي رسول الله اوفتح هو ؟ قال ﷺ **«أي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح»** فقسمت خبير على أهل الحديدية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديدية فقسما رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهماً . وكان الجيش ألفاً وخمسمائة منهم ثلثمائة فارس أعطى الفارس سهمين وأعطى الراجل سهماً ورواه ابو داود في الجهاد عن محمد بن عيسى عن مجمع بن يعقوب به .

وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد ، حدثنا ابو يحيى ، حدثنا شعبة ، حدثنا جامع بن شداد عن عبد الرحمن بن ابي علقمة قال : سمعت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول : لما اقبلنا من الحديدية عرسنا فتمنا فلم نستيقظ الا والشمس قد طلعت ، فاستيقظنا ورسول الله ﷺ نائم قال : فقلنا ايقلوه فاستيقظ رسول الله ﷺ فقال **«افعلوا ماكنتم تفعلون وكذلك يفعل من نام أو نسي»** قال : وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ فطلبناها فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة ، فأتيته بها فركبتها فبينما نحن نسير اذا اتاه الوحي قال : وكان اذا اتاه الوحي اشتد عليه ، فلما مرى عنه اخبرنا انه أنزل عليه **«إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً»** وقد رواه احمد وابو داود والنسائي من غير وجه عن جامع بن شداد به ، وقال الامام احمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان عن زياد بن علاقة قال : سمعت المغيرة بن شعبة يقول : كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه فقيل له أليس قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر ؟ فقال ﷺ **«أفلا أكون عبداً شكوراً؟»** اخرجاه وبقية الجماعة الا ابا داود من حديث زياد به .

وقال الامام احمد : حدثنا هارون بن معروف ، حدثنا ابن وهب ، حدثني ابو صخر عن ابن قسيط عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ اذا صل قام حتى تنفطر رجلاه ، فقالت له عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله ﷺ اتصنع هذا وقد غفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ؟ فقال ﷺ : **«يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً»** ، أخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد الله بن وهب به . وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا عبد الله بن عوف الخزاز وكان ثقة بمكة حدثنا محمد بن بشر حدثنا مسعر عن قتادة عن انس قال قام رسول الله ﷺ حيث تورمت قدماه - أو قال ساقاه - فقيل له أليس قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر ؟ قال : **«أفلا أكون عبداً شكوراً»** غريب من هذا الوجه فقوله **«إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً»** أي بيناً وظاهراً والمراد به صلح الحديدية ، فانه حصل بسببه خير جزيل ، وأمن الناس واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر وانتشر العلم النافع والايمان .

وقوله تعالى : **«ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر»** هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره ، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ، وهذا فيه تشريف لرسول الله ﷺ ، وهو ﷺ في

جميع أموره على الطاعة البر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين ، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق وسيدهم في الدنيا والآخرة ، ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيته قال : حين بركت به الناقة «حبسها حابس الفيل» ثم قال ﷺ «والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمت الله إلا أجبتهم إليها» فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ويتم نعمته عليك ﴿أي في الدنيا والآخرة﴾ ويهديك صراطاً مستقيماً ﴿أي بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم﴾ وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴿أي بسبب خضوعك لأمر الله عز وجل يرفعك الله وينصرك على أعدائك كما جاء في الحديث الصحيح﴾ وما زاد الله عبداً بغفر إلا عزاً ، وماتواضع أحد لله عز وجل إلا رفعه الله تعالى وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : ما عاقبت أحداً عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله تبارك وتعالى فيه .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَاللَّهُ جُودُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ

سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿١١﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ

يَا اللَّهُ ظَنُّكَ السُّوءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةٌ السُّوءِ وَغَضَبُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَعْنُهُمْ وَأَعْدَالُهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٢﴾ وَأُولَئِكَ جُنُودُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٣﴾

يقول تعالى : ﴿هو الذي أنزل السكينة﴾ أي جعل الطمأنينة ، قال ابن عباس رضي الله عنها وعن ، الرحمة وقال قتادة : الوقار في قلوب المؤمنين ، وهم الصحابة رضي الله عنهم ، يوم الحديبية الذين استجابوا لله ولرسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم إيماناً مع إيمانهم ، وقد استدلل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب ، ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانصر من الكافرين فقال سبحانه وتعالى : ﴿والله جنود السموات والأرض﴾ أي ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم ، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة والبراهين الدامغة ، ولهذا قال جللت عظمته ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ . ثم قال عز وجل ﴿ليدخل المؤمنون والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ قد تقدم حديث أنس رضي الله عنه حين قالوا : هنيئاً لك يا رسول الله ، هذا لك فما لنا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ليدخل المؤمنون والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي ماكنين فيها أبداً ﴿ويكفر عنهم سيئاتهم﴾ أي خطاياهم وذنوبهم فلا يعاقبهم عليها ، بل يغفر ويصفح ويغفر ويستر ويرحم ويشكر ﴿وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً﴾ كقوله جل وعلا ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظالمن بالله ظن السوء﴾ أي يتهمون الله تعالى في حكمه ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية ، ولهذا قال تعالى : ﴿عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿وواعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾ ثم قال عز وجل مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء أعداء الإسلام ومن الكفرة والمنافقين ﴿والله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ .

إِذْ أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا أَوْ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٤﴾ لَقَوْمٍ سَابَّوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتَعَزَّوْا وَتَوَفَّرُوهُ وَشَهِحُوا بِسُكْرَةٍ

وَأَصِيلًا ﴿١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُحُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أُوْفِيَ

بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَبَّوْا بِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦﴾

يقول تعالى لنبية محمد ﷺ ﴿إنا أرسلناك شاهداً﴾ أي على الخلق ﴿ومبشراً﴾ أي للمؤمنين ﴿ونذيراً﴾ أي للكافرين وقد تقدم تفسيرها في سورة الأحزاب . ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتمزروه﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغير واحد : تعظموه ﴿وتوقروه﴾ من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام ﴿وتسبحوه﴾ أي تسبحون الله ﴿بكرة وأصيلاً﴾ أي أول النهار وآخره . ثم قال عز وجل لرسول ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ كقوله جل وعلا ﴿من يطع الرسول فقد اطاع الله﴾ ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ أي هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضرائرهم وظواهرهم فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسول الله ﷺ كقوله تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا الفضل بن يحيى الأنباري : حدثنا علي بن بكار عن محمد بن عمرو أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله» وحدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن المغيرة ، أخبرنا عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ في الحجر «والله لبيعته الله عز وجل يوم القيامة له عينان ينظر بهما لسان ينطق به ويشهد على من استلمه بالحق فمن استلمه فقد بايع الله تعالى» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾ ولهذا قال تعالى ههنا ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ أي إنما يعود وبال ذلك على الناكث والله غني عنه ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ أي ثواباً جزيلاً . وهذه البيعة هي بيعة الرضوان وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية ، وكان الصحابة رضي الله عنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قيل ألفاً وثلاثمائة ، وقيل وأربعمائة ، وقيل وخمسمائة ، والأوسط أصح .

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

قال البخاري : حدثنا قتيبة ، حدثنا سفيان عن عمرو عن جابر رضي الله عنه قال : كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة به ، وأخرجه أيضاً من حديث الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن أبي جابر رضي الله عنه قال : كنا يومئذ ألفاً وأربعمائة ، ووضع يده في ذلك الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه حتى روى ، كلهم ، وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية ، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهياً من كنانته فوضعه في بئر الحديبية ، فجاشت بالماء حتى كفتهم فقيل لجابر رضي الله عنه : كم كنتم يومئذ ؟ قال : كنا ألفاً وأربعمائة ولو كنا مائة ألف لكفانا ، وفي رواية في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أنهم كانوا خمس عشرة مائة .

وروى البخاري من حديث قتادة قلت لسعيد بن المسيب : كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ قال : خمس عشرة مائة ، قلت فإن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال كانوا أربع عشرة مائة قال رحمه الله : وهم ، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة ، قال البيهقي : هذه الرواية تدل على أنه كان في القديم يقول خمس عشرة مائة ثم ذكر الوهم فقال أربع عشرة مائة ، وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم كانوا ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين ، والمشهور الذي رواه عنه غير واحد أربع عشرة مائة ، وهذا هو الذي رواه البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن العباس الدوري عن يحيى بن معين عن شعبة بن سوار عن شعبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربعمائة ، وكذلك هو الذي في رواية سلمة بن الأكوع ومعلق بن يسار والبراء بن عازب رضي الله عنهم ، وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي والسير ، وقد أخرج صاحبنا الصحيح من حديث شعبة عن عمرو بن مرة قال : سمعت عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه يقول : كان أصحاب الشجرة ألفاً وأربعمائة وكانت أسلم يومئذ ثمن المهاجرين . وروى محمد بن إسحاق في السيرة عن الزهري عن عروة الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أنها حدثت قال : خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت لا يريد قتالاً ، وساق معه الهدى سبعين بدنة ، وكان الناس سبعمائة رجل كل بدنة عن عشرة نفر ، وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فيها يلغني عنه يقول : كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة . كذا قال ابن إسحاق وهو معدود من أوهامه فإن المحفوظ في الصحيحين أنهم كانوا بضع عشرة مائة ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة : ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليعته إلى مكة ،

ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال : يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها ، ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان رضي الله عنه ، نبهته إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته . فخرج عثمان رضي الله عنه إلى مكة ، فلقبه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق عثمان رضي الله عنه حتى أتى أبا سفيان وعظاء قريش ، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به ، فقالوا لعثمان رضي الله عنه حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ . واحتسبه قريش عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان رضي الله عنه قد قتل . قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل : « ولا نبرح حتى نناجز القوم » .

ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت ، وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول : إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت ولكن بايعنا على أن لا نفر ، فبايع الناس ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجذ بن قيس أخو ابن سلمة ، فكان جابر رضي الله عنه يقول . والله لكأني أنظر إليه لا صقاً يربط ناقته قد صبا إليها يستتر بها من الناس ، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان رضي الله عنه باطل ، وذكر ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قريباً من هذا السياق ، وزاد في سياقه أن قريشاً بعثوا وعندهم عثمان رضي الله عنه ، سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص إلى رسول الله ﷺ ؛ فبينما هم عندهم إذ وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين ، وتراموا بالنبل والحجارة وصاح الفريقان كلاهما ، وارتمن كل من الفريقين من عنده من الرسل ، ونادى منادي رسول الله ﷺ : ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ وأمر بالبيعة ، فخرجوا على اسم الله تعالى فبايعوا ، فسار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على أن لا يفروا أبداً . فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين ، ودعوا إلى المراجعة والصلح .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا علي بن أحمد بن عيدان ؛ أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، حدثنا هشام ، حدثنا الحسن بن بشير ، حدثنا الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال : لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رضي الله عنه رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ، فبايع الناس فقال رسول الله ﷺ : « اللهم إن عثمان في حاجة الله تعالى وحاجة رسوله » فضرب بإحدى يديه على الأخرى ، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه خيراً من أيديهم لأنفسهم . قال ابن هشام حدثني من أتى به عن حذائه بإسناده له عن أبي مليكة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : بايع رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه ، فضرب بإحدى يديه على الأخرى ، وقال عبد الملك بن هشام النحوي : فذكر وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن الشعبي قال : إن أول من بايع رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان أبو سنان الأسدي ، وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي : حدثنا سفيان ، حدثنا ابن أبي خالد عن الشعبي قال : لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة كان أول من انتهى إليه أبو سنان الأسدي فقال : بسط يدك أبايعك . فقال النبي ﷺ « علام تباعني ؟ » فقال أبو سنان رضي الله عنه : على ما في نفسك ، هذا أبو سنان بن وهب الأسدي رضي الله عنه .

وقال البخاري : حدثنا شجاع بن الوليد أنه سمع النضر بن محمد يقول : حدثنا صخر بن الربيع عن نافع رضي الله عنه قال : إن الناس يتحدثون أن ابن عمر رضي الله عنهما أسلم قبل عمر وليس كذلك ، ولكن عمر رضي الله عنه يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار ، أن يأتي به ، ليقاتل عليه ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة ، وعمر رضي الله عنه لا يدري بذلك ، فبايعه عبد الله رضي الله عنه ، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر رضي الله عنه ، وعمر رضي الله عنه يستلثم للقتال ، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة ، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ وهي التي يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر رضي الله عنهما . ثم قال البخاري ، وقال هشام بن عمار : حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا عمرو بن محمد العمري ، أخبرني نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ قد نفرقوا في ظلال الشجر ؛ فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ فقال يعني عمر رضي الله عنه : يا عبد الله انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ ، فوجدتهم يبايعون فبايع ، ثم رجع إلى عمر رضي الله عنه ، فخرج فبايع ، وقد أسده البيهقي عن أبي عمرو الأديب عن أبي بكر الإسماعيلي عن الحسن بن سفيان ، عن دحيم ، حدثني الوليد بن مسلم فذكره ، وقال الليث عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه ، قال : كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه ، وعمر رضي الله عنه أخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة وقال : بايعناه على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت . رواه مسلم عن قتيبة عنه .

وروى مسلم عن يحيى عن يزيد بن زريع عن خالد عن الحكم بن عبد الله الأعرج ، عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : لقد رأيتني يوم الشجرة والنبى ﷺ يبايع الناس ، وأنا رافع غصنا من أغصانها على رأسه ، ونحن أربع عشرة مائة ، قال : ولم نبايعه على الموت ولكن ببايعناه على أن لا نفر . وقال البخاري : حدثنا المكي بن إبراهيم عن يزيد بن أبي عبيد عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة . قال يزيد : قلت يا أبا سلمة على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت . وقال البخاري أيضاً : حدثنا أبو عاصم ! حدثنا يزيد بن أبي عبيد عن سلمة رضي الله عنه قال : بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، ثم تنحيت فقال ﷺ «يا سلمة ألا تبايع ؟» قلت : قد بايعت ، قال ﷺ «أقبل فبايع» ، فدنوت فبايعته ، قلت : علام بايعته يا سلمة ؟ قال : على الموت . وأخرجه مسلم من وجه آخر عن يزيد بن أبي عبيد ، وكذا روى البخاري عن عباد بن تميم أنهم بايعوه على الموت .

وقال البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو الفضل بن إبراهيم ، حدثنا أحمد بن سلمة ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا أبو عامر العقدي ، حدثنا عبد الملك بن عمرو ، حدثنا عكرمة بن عمار الياهمي عن إياس بن سلمة عن أبيه سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة ، وعليها خمسون شاة لا تروها ، فقدم رسول الله ﷺ على جباها يعني الركي ، فإما دعا وإما بصق فيها فجاشت فسقينا واستقينا . قال : ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة في أصل الشجرة ، فبايعته أول الناس ثم بايع وبايع حتى إذا كان في وسط الناس قال ﷺ «وبايعي يا سلمة» قال : قلت يا رسول الله : قد بايعتكم في أول الناس قال ﷺ «وأيضاً» قال ورأى رسول الله ﷺ عزلاً فأعطاني حجة أو درقة ، ثم بايع حتى إذا كان في آخر الناس ، قال ﷺ «ألا تبايع يا سلمة ؟» قال : قلت يا رسول الله قد بايعتكم في أول الناس وأوسطهم ، قال ﷺ «وأيضاً» فبايعته الثالثة ، فقال رسول الله ﷺ «يا سلمة أين حجتك أو درقتك التي أعطيتك ؟» قال : قلت يا رسول الله لقيني عامر عزلاً فأعطيتها إياه فضحك رسول الله ﷺ ثم قال «إنك كالذي قال الأول اللهم ابغني حبيباً هو أحب إلي من نفسي» .

قال : ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح حتى مشى بعضنا في بعض فاصطلحننا . قال : وكنت خادماً لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أسقي فرسه وأجنيه وأكل من طعامه ، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله ، فلما اصطلحننا نحن وأهل مكة واختلط بعضنا في بعض أتيت شجرة فكشحت شوكتها ، ثم اضطجعت في أصلها في ظلها ، فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة ، فجمعوا يقعون في رسول الله ﷺ فأبغضتهم وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا ، فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادي : بالنمهاجرين قتل ابن زنيم ! فاخرطت سفي فشددت على أولئك الأربعة ، وهم رقود ، فأخذت سلاحهم وجعلته ضعفاً في يدي ثم قلت : والذي كرم وجه محمد ﷺ لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه ! قال : ثم جثت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ قال : وجاء عمي عامر برجل من العبلات يقال له مكرز من المشركين يقوده حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال «دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناؤه» فعفا عنهم رسول الله ﷺ وأنزل الله عز وجل ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾ الآية ؛ وهكذا رواه مسلم عن إسحاق بن راهويه بسنده نحوه أو قريباً منه .

وثبت في الصحيحين من حديث أبي عوانة عن طارق عن سعيد بن المسيب قال : كان أبي ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قال : فانطلقنا من قابل حاجين فخفي علينا مكانها ، فإن كان بينت لكم فأنتم أعلم . وقال أبو بكر الحميدي : حدثنا سفيان ، حدثنا أبو الزبير ، حدثنا جابر رضي الله عنه قال : لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة وجدنا رجلاً منا يقال له الجدي بن قيس مخبئاً تحت إبط بعيره ، رواه مسلم من حديث ابن جريج عن ابن الزبير به . وقال الحميدي أيضاً : حدثنا سفيان عن عمرو أنه سمع جابراً رضي الله عنه قال : كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فقال لنا رسول الله ﷺ «أنتم خير أهل الأرض اليوم» قال جابر رضي الله عنه : لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة ، قال سفيان إنهم اختلفوا في موضعها أخرجاه من حديث سفيان ؛ وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا الليث عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة» .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن هارون الفلاس المخرمي ، حدثنا سعيد بن عمرو الأشعبي حدثنا محمد بن ثابت العبدي عن خداس بن عياش عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر» قال : فانطلقنا نبتدئه فإذا رجل قد أضل بعيره فقلنا تعال فبايع . فقال : أصيب بعيري أحب الي من أن أبايع وقال عبد الله بن أحمد : حدثنا عبيد الله بن معاذ ، حدثنا أبي ، حدثنا قرة عن أبي

الزبير عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال «من يصعد الثنية ثنية المزار فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل» فكان أول من صعد خيل بني الحزرج ثم تبادر الناس بعد ، فقال النبي ﷺ «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر» فقلنا : تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ . فقال : والله لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم ، فإذا هو رجل يشد ضالة ، رواه مسلم عن عبيد الله به .

وقال ابن جريج : أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابراً رضي الله عنه يقول : أخبرتني أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة رضي الله عنها «لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد» قالت : يا رسول الله ، فانتزعتها فقالت حفصة رضي الله عنها «وإن منكم إلا واردها» فقال النبي ﷺ : قد قال الله تعالى : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَاءً﴾ رواه مسلم ، وفيه أيضاً عن قتيبة عن الليث عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه قال : إن عبد حاطب بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطباً فقال : يا رسول الله ليدخلن النار فقال رسول الله ﷺ : «كذبت لا يدخلها فإنه قد شهد بداراً والحديبية» ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيُسْوَبْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ كما قال عز وجل في الآية الأخرى ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ .

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا آمُونًا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ

بِالْيَسْتَهْمِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْمًا بَلْ كَانَ اللَّهُ يَتَمَنَّوْنَ خَيْرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّرَ بِذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يَرْؤُا مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾

يقول تعالى محيراً رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهلهم وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ فاعتذروا بشغلهم لذلك وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد بل على وجه التقية والمصانعة ، ولهذا قال تعالى : ﴿يقولون بالستهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً﴾ أي لا يقدر أحد أن يرد ما أراه الله فيكم تعالى وتقدم ، وهو العليم بسر أئركم وضائرهم وان صانعتونا وناقضتونا ، ولهذا قال تعالى : ﴿بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾ ثم قال تعالى : ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً﴾ أي لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص بل تخلف نفاق ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً﴾ أي اعتقدتم أنهم يقتلون وتتأصل شأقتهم ، وتستباد خضراؤهم ولا يرجع منهم خير ﴿وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوماً بوراً﴾ أي هلكني ؛ قاله ابن عباس رضي الله عنها ومجاهد وغير واحد ، وقال قتادة : فاسدين ، وقيل هي لغة عمان . ثم قال تعالى : ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله﴾ أي من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله فإن الله تعالى سيعذبه في السعير ، وان اظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر . ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض ﴿يعفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي لمن تاب إليه وأتاب وخضع لديه .

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَفَازٍ لَتَأَخَذُوا هَذَا وَرَوَانَا نَتَّبِعُكُمْ بِرِيدٍ أَنْ يُسَدِّدُوا

كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُدُّوهُنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية ، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إلى خيبر يفتحنها انهم يسألون ان يخرجوا معهم إلى المغنم ، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدهم ومصابرتهم ، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك معاينة لهم من جنس ذنبهم ، فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم ، لا يشاركون فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين ، فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدراً ولهذا قال تعالى : ﴿يريدون ان يبدلوا كلام الله﴾ قال مجاهد وقتادة وجوير وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية واختاره ابن جرير وقال ابن زيد هو قوله تعالى : ﴿فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوا انكم رضيتم بالعمود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين﴾ وهذا الذي قاله ابن زيد فيه نظر ، لأن هذه الآية التي في براءة نزلت في غزوة تبوك وهي متأخرة عن عمرة الحديبية ، وقال ابن جريح ﴿يريدون ان يبدلوا كلام الله﴾ يعني بتبسيطهم المسلمين عن الجهاد ﴿قل لن تبعوننا كذلك﴾ قال الله من قبل ﴿أي وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم﴾ فسيقون بل تحسدونا﴾ أي أن نشرركم في المغانم ﴿بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ولكن لا فهم لهم .

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا تُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا
وَأِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يَعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧١﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمُرِيضِ حَرَجٌ
وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعْذِبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧٢﴾

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم الذين هم أولو بأس شديد على أقوال [أحدها] انهم هوازن ؛ رواه شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير أو عكرمة جميعاً ، ورواه هشيم عن أبي بشر عنهما وبه يقول قتادة في رواية عنه [الثاني] ثقيف ؛ قاله الضحاك . [الثالث] بنو حنيفة ؛ قال جوير ورواه محمد بن إسحاق عن الزهري وروي مثله عن سعيد وعكرمة . [الرابع] هم أهل فارس ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وبه يقول عطاء ومجاهد وعكرمة في إحدى الروايات عنه . وقال كعب الأحبار : هم الروم ، وعن ابن أبي ليلى وعطاء والحسن وقتادة ؛ وهم فارس والروم . وعن مجاهد : هم اهل الأوثان ، وعنه أيضاً ؛ هم رجال أولو بأس شديد ، ولم يعين فرقه ، وبه يقول ابن جريح وهو اختيار ابن جرير . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الأشج ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق القواريري عن معمر عن الزهري في قوله تعالى : ﴿ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾ قال : لم يأت أولئك بعد .

وحدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان عن ابن أبي خالد عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه في قال تعالى : ﴿ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾ قال : هم البارزون قال وحدثنا سفيان عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين ذلف الأنوف ، كأن وجوههم المجان المطرقة» قال سفيان : هم الترك ، قال ابن أبي عمر : وجدت في مكان آخر ، حدثنا ابن أبي خالد عن أبيه قال : نزل علينا أبو هريرة رضي الله عنه ففسر قول رسول الله ﷺ «تقاتلوا قوماً نعالم الشعر» قال : هم البارزون يعني الأكراد ، وقوله تعالى : ﴿تقاتلونهم أو يسلمون﴾ يعني شرع لكم جهادهم وقاتلهم ، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم ، ولكم النصرة عليهم أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار .

ثم قال عز وجل ﴿فإن تطيعوا﴾ أي تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تولوا كما توليتم من قبل﴾ يعني زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم ﴿يعذبكم عذاباً أليماً﴾ . ثم ذكر تعالى الأعداء في ترك الجهاد فمنها لازم كالعمى والعمرج المستمر ، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياً ما ثم يزول ، فهو في حال مرضه ملحق بدوي الأعداء اللازمة حتى يبرأ . ثم قال تبارك وتعالى مرغياً في الجهاد وطاعة الله ورسوله ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول﴾ أي يتكل عن الجهاد ويقبل على المعاش ﴿يعذبه عذاباً أليماً﴾ في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار ، والله تعالى اعلم .

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٨٧﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٨٨﴾﴾

بحر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، وقد تقدم ذكر عدتهم وأنهم كانوا ألفاً وأربعمائة ، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية ، قال البخاري : حدثنا محمود ، حدثنا عبيد الله عن إسرائيل عن طارق ان عبد الرحمن رضي الله عنه قال : انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون فقلت : ما هذا المسجد ؟ قالوا هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان ، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته فقال سعيد : حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قال : فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها ، فقال سعيد : إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم ، فأنتم اعلم .

وقوله تعالى : ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي من الصدق والوفاء والسمع والطاعة ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ وهي الطمأنينة ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم ، وما -تصل بذلك من الخير لعام المستمر المتصل بفتح خير وفتح مكة ، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا عبيد الله بن موسى يعني ابن عبيدة ، حدثني إياس بن سلمة عن أبيه قال : بينا نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ : أيها الناس ، البيعة البيعة نزل روح القدس ، قال : فثرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه ، فذلك قول الله تعالى : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ قال : فبايع رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه بإحدى يديه على الأخرى فقال الناس : هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت ونحن ههنا فقال رسول الله ﷺ «لومكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف» .

وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ . وَكَفَّ أَيْدِي

النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٨٩﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدُرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٩٠﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَذْذَرْتُمْ لَا يَحْذَرُونَ وَإِنَّا وَلَآتِصِرًا ﴿٩١﴾ سِنَّةً أَنَّهُ آتَى قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَحْدِلْ سِنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٩٢﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩٣﴾

قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ هي جميع المغانم إلى اليوم ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني فتح حير ، وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنها ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني صلح الحديبية ﴿وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أي لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمره لكم من المحاربة والقتال ، وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحرملكم ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يعتبرون بذلك ، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم ، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم إنه العالم بعواقب الأمور ، وإن الخيرة فيها يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهه في الظاهر كما قال عز وجل ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته ، وموافقكم رسوله ﷺ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدُرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي وغنيمة أخرى وفتحاً آخر معنا لم تكونوا تقدرون عليها ، قد يسرها الله عليكم وأحاط بها لكم ، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون ، وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة ما المراد بها فقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنها هي خير ، وهذا

على قوله في قوله عز وجل ﴿فجعل لكم هذه﴾ إنها صلح الحديبية ، وقاله الضحاح وابن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال قتادة : هي مكة واختاره ابن جرير ، وقال ابن أبي ليل والحسن البصري : هي فارس والروم ، وقال مجاهد : هي كل فتح وغنمة إلى يوم القيامة . وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة عن سناك الحنفي عن ابن عباس رضي الله عنها ﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها﴾ قال : هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم .

وقوله تعالى : ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأديار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ يقول عز وجل مبشراً لعباده المؤمنين ، بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ، ولأنهم جيش الكفر فاراً مدبراً لا يجدون ولياً ولا نصيراً ، لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿سنة الله التي قد خلقت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي هذه سنة الله وعادته في خلقه ، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر نرفع الحق ووضع الباطل ، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائهم من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعددهم وكثرة المشركين وعددهم .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان كلا من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة ، وقد تقدم في حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه حين جاءوا بأولئك السبعين الأسارى ، فأوقفوهم بين يدي رسول الله ﷺ فنظر إليهم فقال «أرسلوهم يكن لهم بدء الفجور وثأؤه» . قال وفي ذلك أنزل الله عز وجل ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم﴾ الآية . وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حماد عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح ، من قبل جبل التنعيم ، يريدون غرة رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا . قال عفان : فعفا عنهم ونزلت هذه الآية ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾ ورواه مسلم وأبو داود في سننه والترمذي والنسائي في التفسير من سننهما من طرق عن حماد بن سلمة به . وقال أحمد أيضاً : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا الحسين بن واقد ، حدثنا ثابت البناني عن عبد الله بن مغفل المزني رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال تعالى في القرآن ، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وسهيل بن عمرو بين يديه فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فأخذ سهيل بيده وقال : ما تعرف الرحمن الرحيم ، اكتب في قضيتنا ما نعرف فقال «اكتب باسمك اللهم - وكتب - هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ أهل مكة» فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال : لقد ظلمناك إن كنت رسوله اكتب في قضيتنا ما نعرف فقال اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله «فبيننا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح ، فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم رسول الله ﷺ ، فأخذ الله تعالى بأساسهم فقمنا إليهم فأخذناهم فقال رسول الله ﷺ : «هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل جعل لكم أحد أماناً؟» فقالوا : لا ، فحبل سبيلهم فأنزل الله تعالى : ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾ الآية رواه النسائي من حديث حسين بن واقد به .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب العمري ، حدثنا جعفر عن ابن أبي عمير قال : لما خرج النبي ﷺ بالهدى وانتهى إلى ذي الخليفة قال له عمر رضي الله عنه : يا نبي الله ، تدخل على قوم لك حرب بغير سلاح ولا كراع ؟ قال : فبعث ﷺ إلى المدينة فلم يدع فيها كراعاً ولا سلاحاً إلا حمله ، فلما دنا من مكة منعه أن يدخل فسار حتى أتى منى ، فنزل بجنى فأتاه عنه أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج عليك في خمسة ، فقال لخالد بن الوليد رضي الله عنه : «يا خالد هذا ابن عمك قد أتاك في الخيل» فقال خالد رضي الله عنه : أنا سيف الله وسيف رسوله ، فيومئذ سمي سيف الله ، فقال : يا رسول الله ابعثنى أين شئت ، فبعثه على خيل فلقى عكرمة في الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد في الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد في الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، فأنزل الله تعالى : ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة - إلى قوله تعالى - عذاباً ألماً﴾ قال فكف الله عز وجل النبي ﷺ عنهم من بعد أن أظفروا عليهم لبقايا من المسلمين كانوا أبقوا فيها كراهية أن تظاهم الخيل ، ورواه ابن أبي حاتم عن ابن أبي عمير بنحوه ، وهذا السياق فيه نظر فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديبية ، لأن خالد رضي الله عنه لم يكن أسلم بل قد كان طليعة للمشركين يومئذ ، كما ثبت في الصحيح ، ولا يجوز أن يكون في عمرة القضاء لأنهم قاضوه على أن يأتي في العام القابل فيعتمر ، ويقم

بمكة ثلاثة أيام ، ولما قدم ﷺ لم يمانعوه ولا حاربوه ولا قاتلوه .

فإن قيل : فيكون يوم الفتح ؟ فالجواب : ولا يجوز أن يكون يوم الفتح لأنه لم يسق عام الفتح هدياً ، وإنما جاء محارباً مقاتلاً في جيش عرمرم ، فهذا السياق فيه خلل وقد وقع فيه شيء فليتأمل والله اعلم . وقال ابن إسحاق : حدثني من لا أتهم عن عكرمة مولى بن عباس رضي الله عنه قال : إن قريشاً بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين ، وأمرهم أن يطفئوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحداً فأخذوا أحداً ، فأتى بهم رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخط سبيلهم ، وقد كانوا رموا إلى عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل . قال ابن إسحاق : وفي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ﴾ الآية . وقال قتادة : ذكر لنا أن رجلاً يقال له ابن زنيم اطلع على الثنية من الحديبية ، فرماه المشركون بسهم فقتلوه ، فبعث رسول الله ﷺ خيلاً فأتوه باثني عشر من الكفار فقال لهم « هل لكم علي عهد ؟ هل لكم علي ذمة ؟ » قالوا : لا ، فأرسلهم وأنزل الله تعالى في ذلك ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ﴾ الآية .

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدْيَةِ مَعَكُوفًا أَنْ يُبَلِّغَ مِنْهُمْ أَجَلَهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمَتَّعَلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَعْضُهُمْ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ . مَنْ نِسَاءٌ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ فَإِنَّزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ . وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّزْمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ يَكْفُلْ شَيْءٌ عَلَيْهِمَا ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب من قريش ، ومن مالا هم على نصرتهم على رسول الله ﷺ ﴿ هم الذين كفروا ﴾ أي هم الكفار دون غيرهم ﴿ وصدوكم عن المسجد الحرام ﴾ أي أنتم أحق به وأنتم أهله في نفس الأمر ﴿ والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ﴾ أي وصدوا الهدى أن يصل إلى محله وهذا من بينهم وعنادهم ، وكان الهدى سبعين بدنة كما سياتي إن شاء الله تعالى ، وقوله عز وجل ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ﴾ أي بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم ، لكننا سلطانكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم ولكن بين أفتانهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لم تعلموهم أن تطوؤهم فتصيبكم منهم معرفة ﴾ أي إثم وغرامة ﴿ بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء ﴾ أي يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين ، ويرجع كثير منهم إلى الإسلام ، ثم قال تبارك وتعالى ﴿ لو تزيلوا ﴾ أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿ لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴾ أي لسلطانكم عليهم فقتلتموهم قتلاً ذريعاً .

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا أبو الزنباغ روح بن الفرج ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي عباد المكي ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد مولى بني هاشم ، حدثنا حجر بن خلف قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : سمعت جنيد بن سبيع يقول : قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافراً ، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً ، وفيما نزلت ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ﴾ قال : كنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتين ، ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن عباد المكي به ، وقال فيه عن أبي جمعة جنيد بن سبيع فذكره ، والصواب أبو جعفر حبيب بن سباع ، ورواه ابن أبي حاتم من حديث حجر بن خلف به ، قال : كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة ، وفيما نزلت ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ﴾ وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن أسماعيل البخاري . حدثنا عبد الله بن عثمان بن جبلة عن أبي حزة عن عطاء عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴾ يقول لو تزييل الكفار من المؤمنين لعذبهم الله عذاباً أليماً بقتلهم إياهم .

وقوله عز وجل ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم ، وأبوا أن يكتبوا هذا ما قضى عليه محمد رسول الله ﴿ فإنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى ﴾ وهي قول « لا إله إلا الله » كما قال ابن جرير وعبد الله ابن الإمام أحمد . حدثنا الحسن بن قزعة أبو علي البصري حدثنا سفيان بن حبيب ، حدثنا شعبة عن ثور عن أبيه عن الطفيل ، يعني ابن أبي بن كعب عن أبيه رضي الله عنه ، أنه

سمع رسول الله ﷺ يقول ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال «لا إله إلا الله» وكذا رواه الترمذي عن الحسن بن قزعة ، وقال غريب لا يعرفه إلا من حديثه ، وسألت أبا زرعة عنه فلم يعرفه إلا من هذا الوجه ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الرمادي ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني الليث ، حدثني عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة رضي الله عنه أخبره أن رسول الله ﷺ قال «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل» وأنزل الله عز وجل في كتابه وذكر قوماً فقال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وقال الله جل ثناؤه ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فاستكبروا عنها ، واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية فكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة ، وكذا رواه هذه الزيادات ابن جرير من حديث الزهري ، والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهري والله اعلم .

وقال مجاهد : كلمة التقوى الإخلاص ، وقال عطاء بن أبي رباح هي «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير» وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق عن الزهري عن عروة عن المسور ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وقال الثوري عن سلمة بن كهيل عن عباية بن ربيعي عن علي رضي الله عنه ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال «لا إله إلا الله والله أكبر» ، وكذا قال ابن عمر رضي الله عنهما ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى : ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال : يقول شهادة أن لا إله إلا الله وهي رأس كل تقوى ، وقال سعيد بن جبيرة ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال «لا إله إلا الله والجهاد في سبيله» ، وقال عطاء الخراساني هي «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وقال عبد الله بن المبارك عن معمر عن الزهري ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال «بسم الله الرحمن الرحيم» . وقال قتادة ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال «لا إله إلا الله» ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي هو عليهم بمن يستحق الخير بمن يستحق الشر ، وقد قال النسائي : حدثنا إبراهيم بن سعيد ، حدثنا شبابة بن سوار عن أبي رزين عن عبد الله بن العلاء بن نوير عن بشر بن عبد الله عن أبي إدريس عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه كان يقرأ ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ ولو حتمت كما حووا لفسد المسجد الحرام ، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فأغلظ له فقال إنك لتعلم أني كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمني مما علمه الله تعالى ، فقال عمر رضي الله عنه : بل أنت رجل عندك علم وقرآن ، فأقرأ وعلم مما علمك الله تعالى ورسوله .

وهذا ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقصة الصلح

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون . أخبرنا محمد بن إسحاق بن يسار عن الزهري عن عروة بن الزبير ، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما قالوا : خرج رسول الله ﷺ يريد زيارة البيت لا يريد قتالا ، وساق معه الهذلي سبعين بدنة ، وكان الناس سبعائة رجل ، فكانت كل بدنة عن عشرة ، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال : يا رسول الله هذه قريش ، قد سمعت بمسرك فخرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبست جلود النمر يعاهدون الله تعالى أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً ، وهذا الخالد بن الوليد في خيلهم قد قدموه إلى كراع الغميم ، فقال رسول الله ﷺ «يا ويح قريش ! قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس ؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله تعالى دخلوا في الإسلام وهم وأفرون ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فإذا تظن قريش فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يظهرني الله عز وجل أو تنفرد هذه السالفة» ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض على طريق تخرجه على ثنية المرار والحديبية من أسفل مكة ، قال فسلك بالجيش تلك الطريق ، فلما رأت خيل قريش قرة الجيش قد خالفوا عن طريقهم ، ركضوا راجعين إلى قريش ، فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك ثنية المرار بركت ناقته فقال الناس خلأت ، فقال رسول الله ﷺ «ما خلأت وما ذلك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها» .

ثم قال ﷺ للناس «انزلوا» قالوا : يا رسول الله ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس ، فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه ، فنزل في قليب من تلك القلب فغرز فيه ، فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بطن . فلما اطمأن رسول الله ﷺ إذا بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة ، فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان ، فرجعوا إلى قريش فقالوا : يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد ﷺ ، إن محمداً لم يأت لقتال إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه ، فاتهموه . قال محمد بن إسحاق : قال الزهري وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ،

مشركتها ومسلمها لا يخفون على رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم شيئاً كان بمكة ، فقالوا : وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبداً علينا عنوة ، ولا يتحدث بذلك العرب ، ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص أحد بني عامر بن لؤي . فلما رآه رسول الله ﷺ قال «هذا رجل غادر» فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ، كلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم بنحو مما تكلم به مع أصحابه ، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ فبعثوا إليه الخليس بن علقمة الكناني ، وهو يومئذ سيد الأحابيش ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال «هذا من قوم يتأهلون فابعثوا الهدى» فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى فقال : يا معشر قريش لقد رأيت ما لا يحل صد الهدى في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، قالوا : اجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك .

فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفي فقال : يا معشر قريش إنني قد رأيت ما يلقي منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم إلى والد وأنا ولد ، وقد سمعت بالذي نابكم فجمعت من أطاعني من قومي ثم جئت حتى آسيتكم بنفسي . قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم . فخرج حتى أت رسول الله ﷺ فجلس بين يديه فقال : يا محمد جمعت أوباش الناس ثم جئت بهم لبيضتك لتقضها ، إنما قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمرور يعاهدون الله تعالى أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً ، وإيم الله لكأن هؤلاء قد انكشفوا عنك غداً ، قال أبو بكر رضي الله عنه قاعد خلف رسول الله ﷺ فقال : امصص بظر اللات أنحن نكشف عنه ؟ قال من هذا يا محمد ؟ قال ﷺ «هذا ابن أبي قحافة» قال : أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها ، ولكن هذه بها ، ثم تناول حية رسول الله ﷺ والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه واقف على رأس رسول الله ﷺ بالحديد ، قال : ففرع يده ثم قال أمسك يدك عن حية رسول الله ﷺ قبل والله أن لا تصل إليك قال ويحك ما أفظك وأغلظك ! فتبسم رسول الله قال : من هذا يا محمد ؟ قال ﷺ «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة» قال : أغدر ، وهل غسلت سؤاتك إلا بالأمس ؟ قال : فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً . قال فقام من عند رسول الله ﷺ ، وقد رأى ما يصعب به أصحابه لا يتوضأ وضوءاً إلا ابتدروه . ولا ييصق بصاقاً إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه ، فرجع إلى قريش فقال : يا معشر قريش إنني جئت كسرى في ملكه وجئت قيصر والنجاشي في ملكها ، والله ما رأيت ملكاً قط مثل محمد ﷺ في أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم .

قال : وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك بعث خراش بن أمية الخزاعي إلى مكة ، وحمله على جمل له الثعلب ، فلما دخل مكة عفرت به قريش وأرادوا قتل خراش ، فممنعتهم الأحابيش حتى أت رسول الله ﷺ ، فدعا عمر رضي الله عنه ليعتبه إلى مكة فقال : يا رسول الله إنني أخاف قريشاً على نفسي وليس بها من بني عدي أحد يمضي . وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني بها عثمان بن عفان رضي الله عنه . قال : فدعا رسول الله ﷺ ، فبعثه يخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمة ، فخرج عثمان رضي الله عنه حتى أت مكة ، فلقبه أبان بن سعيد بن العاص ، فنزل عن دابته وحمله بين يديه أردفه خلفه واجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق عثمان رضي الله عنه حتى أت أبا سفيان وعظماة قريش ، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به ، فقالوا لعثمان رضي الله عنه : ان شئت ان تطوف بالبيت فطف به ، فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ . قال : واحتبسته قريش عندها قال : وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان رضي الله عنه قد قتل .

قال محمد : فحدثني الزهري أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو وقالوا : أتت محمداً فصالحه ولا تلتن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا يتحدث العرب إنه دخلها علينا عنوة أبداً ، فأناه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال : «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل» . فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ، تكلموا وأطالا الكلام وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح ، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأقأ أبا بكر رضي الله عنه فقال : يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ أو لسنا بالمسلمين ؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام تعطي الدنيا في ديننا ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه : الزم غرزة حيث كان فإني أشهد أنه رسول الله . فقال عمر رضي الله عنه : وأنا أشهد ، ثم أت رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أو لسنا بالمسلمين ؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ قال ﷺ «بلى» قال : فعلام تعطي الدنيا في ديننا ؟ فقال ﷺ «أنا عبد الله ورسوله لن أتخالف أمره ولن يضيعني» ثم قال عمر رضي الله عنه : ما زلت أصوم وأصلي وأتصدق وأعتق من الذي صنعت محافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ ، حتى رجوت أن يكون خيراً .

قال : ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل :

لا أعرف هذا . ولكن اكتب : باسمك اللهم . فقال رسول الله ﷺ «اكتب باسمك اللهم . هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» فقال له سهيل بن عمرو : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو على وضع الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى رسول الله ﷺ من أصحابه بغير إذن وليه رده عليه ، ومن أتى قريشاً عن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه وأن بيتنا عيبة مكفوفة وأنه لا أسلال ولا أغلال . وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب : أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه» فتوالت خزاعة فقالوا ، نحن في عقد رسول الله ﷺ وعهده ، وتوالت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم ، وأنت ترجع عنا عامنا هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك وأقمت بها ثلاثاً ، معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب .

فيما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديد قد انقلبت إلى رسول الله ﷺ ، قال وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه ، دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا أن يهلكوا . فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه قال : يا محمد قد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال «صدقت» فقام إليه فأخذ بتلابيبه قال وصرخ أبو جندل بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أتردوني إلى أهل الشرك فيفتنوني في دينه ؟ قال فزاد الناس شراً إلى ما بهم . فقال رسول الله ﷺ «يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله تعالى جاعل لك وبن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، فاعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهداً وإنا لن نغدر بهم» . قال : فوثب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فجعل يمشي مع أبي جندل ، ويقول اصبر أبا جندل فإنا هم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب ، قال : ويدني قائم السيف منه ، قال يقول : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه . قال : فضن الرجل بأبيه ، قال ونفذت القضية ، فلما فرغاً من الكتاب ، وكان رسول الله ﷺ يصلي في الحرم وهو مضطرب في الحل ، قال : فقام رسول الله ﷺ فقال «يا أيها الناس انحلوا واحلقوا» قال : فما قام أحد ، قال ثم عاد ﷺ بمثلها ، فما قام رجل ، ثم عاد ﷺ بمثلها فما قام رجل ، فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة رضي الله عنها فقال «يا أم سلمة ما شأن الناس؟» قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما رأيت ، فلا تكلمن منهم إنساناً وأعد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق ، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ، فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى إذا أت هديه فنحره ثم جلس فحلق ، قال : فقام الناس ينحرون ويحلقون ، حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق نزلت سورة الفتح ، هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه ، وهكذا رواه يونس بن بكير وزياد البكائي عن أبي إسحاق بنحوه . وقد رواه أيضاً عن عبد الرزاق عن معمر عن الزهري به نحوه ، وخالفه في أشياء وفيه إغراب ، وقد رواه البخاري رحمه الله في صحيحه فساقه سبابة مطولة بزيادات جيدة ، فقال في كتاب الشروط من صحيحه : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، أخبرني الزهري أخبرني عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، يصدق كل واحد منها حديث صاحبه ، قالوا : خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه ، فلما أت ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة ، وبعث عيناً من خزاعة وسار ، حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه فقال إن قريشاً قد جمعوا لك مجموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش ، وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك . فقال ﷺ «أشيروا أيها الناس علي ، أترون أن نميل على عيالهم وذراي هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟» وفي لفظ «ترون أن نميل على ذراي هؤلاء الذين أعانوهم ، فإن يأتونا كان الله قد قطع عنقاً من المشركين ، والا تركناهم محزونين» ، وفي لفظ «فان قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محزونين ، وإن نجوا يكن عنقاً قطعها الله عز وجل . أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه» .

فقال أبو بكر رضي الله عنه ، يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت ، لا تريد قتل أحد ولا حرباً ، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه ، وفي لفظ : فقال أبو بكر رضي الله عنه : الله ورسوله علم إنما جئنا معتمرين ولم نجىء لقتال أحد ، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه ، فقال النبي ﷺ «فروحوا إذن» وفي لفظ «فامضوا على اسم الله تعالى» حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ «إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقتة الجيش فانطلق يركض نذيراً لقريش ، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته ، فقال الناس : حل حل فألحت ، فقالوا : خللات القصواء خللات القصواء . فقال النبي ﷺ «ما خللات القصواء وما ذاك لها بخنق ولكن حبسها حابس القيل ، ثم قال ﷺ : والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله تعالى إلا

أعطيتهم إياها». ثم زجرها فوثبت فعذل عنهم حتى نزل بأقصى الحديدية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرصاً ، فلم يلبث الناس حتى نزحوه ، وشكوا إلى رسول الله العطش ، فانتزع ﷺ من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه .

فبينما هم كذلك إذ جاء بدليل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة ، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ ، من أهل هامة . فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا عدا مياه الحديدية ، معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلون وصادون عن البيت . فقال النبي ﷺ «إنا لم نجيء لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، فأضرت بهم ، فإن شاموا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس ، فإن أظهر ، فإن شاموا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد حورا ، وإن هم أبوا فالذي نفسي بيده لأقاتلهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أولينفذن الله أمره» . قال بدليل : سأبلغهم ما تقول . فانتقل حتى أت قريشاً فقال : إنا قد جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا ، فقال سفيهاؤهم : لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء . وقال ذوو الرأي منهم : هات ما سمعته يقول . قال : سمعته يقول كذا وكذا ، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ فقام عروة بن مسعود فقال : أي قوم أستم بالوالد قالوا : بلى ، قال : أولست بالولد ؟ قالوا : بلى ، قال : فهل تنهموني ؟ قالوا : لا ، قال : أستم تعلمون أي استغفرت أهل عكاظ ، فلما بلحوا علي جئتكم بأهل وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا : بلى . قال : فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته . قالوا : آته . فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ له نحواً من قوله لبديل بن ورقاء ، فقال عروة عند ذلك : أي محمد ، أرايت إن استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أصله قبلك ؟ وإن تك الأخرى فإني والله لأرى وجوها ، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : امصص بظر اللات أنحن نفر وندعه ؟ قال : من ذا ؟ قالوا أبو بكر . قال : أما والذي نفسي بيده لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك . قال : وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ ، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه قائم على رأس النبي ﷺ ، ومعه السيف وعليه المغفر ، وكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال : أخرج يدك عن لحية رسول الله ﷺ . فرفع عروة رأسه وقال : من هذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة . قال : أي غدر ألت أسعى في غدرتك ؟ وكان المغيرة بن شعبة رضي الله عنه صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم . فقال النبي ﷺ «أما الإسلام فاقبل ، وأما المال فلست منه في شيء» .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه قال : فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يجدون النظر إليه تعظيماً له ﷺ ، فرجع عروة إلى أصحابه . فقال : أي قوم ! والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي ، والله إن رأيت ملكاً قط يعظم أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يجدون النظر إليه تعظيماً له ، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها . فقال رجل منهم من بني كنانة : دعوني آته . فقالوا : آته . فقالوا : آته . فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ، قال النبي ﷺ «هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له» . فبعثت له واستقبله الناس يلبون . فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فإأرى أن يصدوا عن البيت . فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص ، فقال : دعوني آته . فقالوا : آته . فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ «هذا مكرز وهو رجل فاجر» فجعل يكلم النبي ﷺ ، فبينما هو يكلم إذ جاء سهيل بن عمرو ، وقال معمر : أخبرني أبوب عن عكرمة أنه قال : لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ «قد سهل لكم من أمركم» . قال معمر قال الزهري في حديثه فجاء سهيل بن عمر فقال : هات اكتب بيننا وبينك كتاباً . فدعا النبي ﷺ بعلي رضي الله عنه وقال «اكتب سم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل بن عمرو : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب . فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا باسم الله الرحمن الرحيم . فقال النبي ﷺ «اكتب باسمك اللهم - ثم قال - هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله . فقال له النبي ﷺ «والله إني لرسول الله وإن كذبتهموني ، اكتب محمد بن عبد الله» قال الزهري : وذلك لقوله «والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمان الله تعالى إلا أعطيتهم إياها» فقال له النبي ﷺ : على أن تحملوا بيننا وبين البيت فنظوف به . فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ولكن ذلك

من العام المقبل ، فكتب فقال سهيل : وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا فقال المسلمون : سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟ .

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي . فقال النبي ﷺ «إنا لم نقض الكتاب بعد» قال : فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبداً ، فقال النبي ﷺ «فأجزه لي» قال : ما أنا بمجيز ذلك لك قال «بلى فافعل» قال : ما أنا بفاعل . قال مكرز : بلى قد أجزناه لك . قال أبو جندل : أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ، ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله عز وجل . قال عمر رضي الله عنه : فأتيت نبي الله ﷺ فقلت ألسنت نبي الله حقاً ؟ قال ﷺ «بلى» قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال ﷺ «بلى» قلت فلم نعطي الدنية في ديننا إذا ؟ قال ﷺ «إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري» قلت : أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال ﷺ : «بلى فأخبرتك أنا تأتبه العام ؟» . قلت : لا . قال ﷺ : فإنك أتبه ومطوف به . قال : فأتيت فقلت أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً ؟ قال : بلى . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فلم نعطي الدنية في ديننا إذا ؟ قال : أيا الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه ، وهو ناصره فاستمسك بغرزه ، فوالله إنه على الحق . قلت : أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال بلى ، فأخبرك أنك تأتبه العام ؟ قلت : لا . قال : فانك تأتبه ونطوف به .

قال الزهري قال عمر رضي الله عنه : فعملت لذلك أعمالاً . قال فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه : «قوموا فانحروا ثم احلقوا» قال : فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ﷺ ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يبق منهم أحد دخل ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها ، فذكر لها ما لقي من الناس ، قالت له أم سلمة رضي الله عنها : يا نبي الله أحب ذلك ؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر يدك وتدعو حالك فيحلقك ، فخرج رسول الله ﷺ ، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، نحر يده ودعا حلقه فحلقه . فلما راوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يملق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً عما ، ثم جاءه نوبة مؤمنات فأنزل الله عز وجل «يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات - حتى بلغ - بعصم الكوافر» فطلق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك ، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية .

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاهه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم ، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا : المهدي الذي جعلت لنا ، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حي إذا بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمرهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً ، فاستله الآخر فقال : أجل والله إنه لجيد ، لقد جربت منه ثم جربت . فقال أبو بصير : أرى أنظر إليه فأمكنه منه فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ حين رآه «لقد رأى هذا ذعراً» فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال : قتل والله صاحبي وإني لمقتول . فجاه أبو بصير فقال : يا رسول الله قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله تعالى منهم . فقال النبي ﷺ «ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحده .

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر قال وتلفت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبي بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة ، فوالله ما يسمعون بعير حرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوه وأخذوا أموالهم . فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم ، فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم وأنزل الله عز وجل «وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة - حتى بلغ - حمية الجاهلية» وكانت حينهم أنهم لم يقرأوا أنه رسول الله ، ولم يقرأوا بسم الله الرحمن الرحيم ، وحالوا بينهم وبين البيت . هكذا ساقه البخاري ههنا ، وقد أخرجه في التفسير وفي عمرة الحديبية وفي الحج وغير ذلك من حديث معمر وسفيان بن عيينة ، كلاهما عن الزهري به . ووقع في بعض الأماكن عن الزهري عن عروة بن مروان والمسور عن رجال من أصحاب النبي ﷺ بذلك وهذا أشبه والله أعلم ، ولم يسقه أبسط من ههنا ، وبينه وبين سياق بن إسحاق تباين في مواضع ، وهناك فوائد ينبغي إضافتها إلى ما هنا ، ولذلك سقنا تلك الرواية وهذه والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم .

وقال البخاري في التفسير : حدثنا أحمد بن إسحاق السلمي ، حدثنا يعلى ، حدثنا عبد العزيز بن سياه عن حبيب بن أبي ثابت قال : أتيت أبا وائل أسأله ، فقال كنا بصفين ، فقال رجل : ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله ، فقال علي بن

أبي طالب رضي الله عنه : نعم ، فقال سهل بن حنيف : اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني الصالح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين ، ولو نرى قتالاً لقاتلنا ، فجاء عمر رضي الله عنه فقال : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلنا في الجنة وقتلاهم من النار ؟ فقال : بلى . قال : فقيم تعطي الدنيا في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا ؟ فقال ﷺ : «يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيغي الله أبداً» فرجع متغيظاً فلم يصبر حتى جاء أبا بكر رضي الله عنه فقال : يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ فقال : يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيغه الله أبداً ، فنزلت سورة الفتح . وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع أخر ومسلم والنسائي من طرق أخر عن أبي وائل سفيان بن سلمة عن سهل بن حنيف به ، وفي بعض النفاذه : يا أيها الناس اتهموا الرأي فلقد رأيتني يوم أبي جندل ، ولو أقدر على أن أورد على رسول الله ﷺ أمره لرددته ، وفي رواية : فنزلت سورة الفتح فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأها عليه . وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال : إن قريشاً صالحوا النبي ﷺ وفيهم سهيل بن عمرو ، فقال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل : لا ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم ، ولكن اكتب باسمك اللهم . فقال ﷺ : «اكتب من محمد رسول الله» قال : لو نعلم أنك رسول الله لا تبعناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال النبي ﷺ : «اكتب من محمد بن عبد الله» واشترطوا على النبي ﷺ أن من جاء منكم لم نرده عليكم ، ومن جاءكم منا رددتموه علينا ، فقال : يا رسول الله أنكتب هذا ؟ قال ﷺ : «نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله» رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به .

وقال أحمد أيضاً ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن عكرمة بن عمار قال حدثني سبأ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : لما خرجت الحزورية اعتزلوا فقلت لهم إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين ، فقال لعلي رضي الله عنه «اكتب يا علي هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك فقال رسول الله ﷺ : «امح يا علي اللهم إنك تعلم إني رسولك امح يا علي واكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله» والله لرسول الله خير من علي وقد محاه نفسه ولم يكن محوه ذلك يحويه من النبوّة أخرجت من هذه ؟ قالوا نعم ورواه أبو داود من حديث عكرمة بن عمار اليامي بنحوه وروى الإمام أحمد عن يحيى بن آدم عن زهير بن حرب عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبي جهل فلما صدت عن البيت حنت كما نحن إلى أولادها .

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامَيْنِ مَحْلِقِينَ رُءُوسِكُمْ وَمَقْصِرِينَ
لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ
الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٦٨﴾

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تنفسر هذا العام فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع في نفس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء ، حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فقال له فيما قال أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : «بلى فأخبرتكم أنك تأتيه عامك هذا ؟» قال لا ، قال النبي ﷺ : «فإنك أتبه ومطوف به» وبهذا أجاب الصديق رضي الله عنه أيضاً حذو القذة بالقذة ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده وليس هذا من الاستثناء في شيء . وقوله عز وجل ﴿آمين﴾ أي في حال دخولكم ، وقوله ﴿محلقي رؤوسكم ومقصرين﴾ حال مقدرة لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين وإنما كان هذا في ثاني الحال . كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره ، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال «رحم الله المحلقين» قالوا والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ : «رحم الله المحلقين» قالوا والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ : «رحم الله المحلقين» في الثالثة أو الرابعة . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿لا تخافون﴾ حال مؤكدة في المعنى فأثبت لهم الأمن حال الدخول ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية

في ذي القعدة رجع إلى المدينة ، فأقام بها ذا الحجة والمحرم وخرج في صفر إلى خيبر ، ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحاً ، وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدوا أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، وأبو موسى الأشعري وأصحابه رضي الله عنهم ، ولم يغيب منهم أحد ، قال ابن زيد : إلا أبا دجانة سبأ بن خرشة ، كما هو مقرر في موضعه ثم رجع إلى المدينة .

فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج ﷺ إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذي الحليفة وساق معه الهدي ، قيل : كان ستين بدنة ، فلبى وسار أصحابه يلبون . فلما كان قريباً من مر الظهران بعث محمد بن سلمة بالخييل والسلاح أمامه . فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً ، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأحبروا أهل مكة ، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج ، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قربها كما شرطهم عليه . فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص فقال : يا محمد ما عرفناك تنقض العهد ، فقال ﷺ : وما ذاك ؟ قال : دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح . فقال : ﷺ «لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج» . فقال : بهذا عرفناك بالر والوفاء ، وخرجت رؤوس الكفار من مكة لثلاثين يوماً إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه رضي الله عنهم غيظاً وحنقاً . وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان ، فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبون ، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله بن رواحة الأنصاري أخذ بزمام ناقه رسول الله ﷺ وهو يقول :

باسم الذي لا دين إلا دينه	باسم الذي محمد رسوله
خلوا بني الكفار عن سبيله	اليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله	ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله	قد أنزل الرحمن في تنزيله
في صحف تنلى على رسوله	بأن خير القتل في سبيله

يا رب إني مؤمن بقبيله .

فهذا مجموع من روايات متفرقة . قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال : لما دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء دخلها وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه أخذ بخطام ناقته ﷺ وهو يقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله	إني شهيد أنه رسوله
خلوا فكل الخير في رسوله	يا رب إني مؤمن بقبيله
نحن قتلناكم على تأويله	كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله	ويذهل الخليل عن خليله

وقال عبد الرزاق : حدثنا معمر عن الزهري عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : لما دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء مشى عبد الله بن رواحة رضي الله عنه بين يديه ، وفي رواية : وابن رواحة أخذ بغرزة وهو رضي الله عنه يقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله	قد نزل الرحمن في تنزيله
بأن خير القتل في سبيله	يا رب إني مؤمن بقبيله
نحن قتلناكم على تأويله	كما قتلناكم على تنزيله
اليوم نضربكم على تأويله	ضرباً يزيل الهام عن مقيله

ويذهل الخليل عن خليله

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن الصباح ، حدثنا إسماعيل يعني ابن زكريا عن عبد الله ، يعني ابن عثمان عن أبي عباس رضي الله عنها ، قال : إن رسول الله ﷺ لما نزل مر الظهران في عمرته بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشاً تقول ما يتباعثون من العجف ، فقال أصحابه لو انتحرننا من ظهرنا فأكلنا من لحمه وحسونا من مرقه أصبحنا غداً حين ندخل على القوم وبنا جمامة . قال ﷺ : لا تفعلوا ولكن اجمعوا لي من أزوادكم ، فجمعوا له وبسطوا الأنطاع فأكلوا حتى تركوا وحشا

كل واحد منهم في جرابه ، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد وقعدت قريش نحو الحجر فاضطجع ﷺ بردائه ثم قال «لا يرى القوم فيكم غميمة» فاستلم الركن ثم رمل حتى إذا تغيب بالركن اليماني مثنى إلى الركن الأسود ، فقالت قريش : ما ترضون بالمشي أما إنكم لتتقرون نقر الطباء ، ففعل ذلك ثلاثة أشواط فكانت سنة . قال أبو الطفيل : فأخبرني ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ فعل ذلك في حجة الوداع .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة وقد وهنتهم حمى يثرب ولقوا منها سوءاً ، فقال المشركون : أنه يقدم عليكم يوم قد وهنتهم حمى يثرب ، ولقوا منها شراً وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر ، فأطلع الله تعالى نبيه ﷺ على ما فعلوا ، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جلدتهم ، قال : فرملوا ثلاثة أشواط ، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون ، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم . فقال المشركون : أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم هؤلاء أجلد من كذا وكذا أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد به .

وفي لفظ : قدم النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم صبيحة رابعة يعني من ذي القعدة ، فقال المشركون إنه يقدم عليكم وقد وهنتهم حمى يثرب فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم . قال البخاري : وزاد ابن سلمة ، يعني حماد بن سلمة ، عن أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما قدم النبي ﷺ لعامة الذي استأمن قال ارملوا ، ليرى المشركين قوتهم والمشركون من قبل قعيقعان ، وحدثنا محمد ، حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إنما سعى النبي ﷺ بالبيت وبالوصفا والمرورة ليرى المشركون قوته . ورواه في مواضع ومسلم والنسائي من طرق عن سفيان بن عيينة به . وقال أيضاً : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد أنه سمع ابن أبي أوفى يقول : لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم ، أن يؤذوا رسول الله ﷺ ، انفرد به البخاري دون مسلم ، وقال البخاري أيضاً : حدثنا محمد بن رافع ، حدثنا شريح بن النعمان ، حدثنا فليح وحدثني محمد بن الحسين بن إبراهيم ، حدثنا أبي ، حدثنا فيح بن سليمان عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ خرج معتمراً ، فحال كفار قريش بينه وبين البيت ، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل ، ولا يحمل سلاحاً عليهم إلا سيوفاً ولا يقيم بها إلا ما أحبوا . فاعتمر ﷺ من العام المقبل فدخلها كما كان صالحهم ، فلما أن أقام بها ثلاثاً أمره أن يخرج فخرج ﷺ ، وهو في صحيح مسلم أيضاً .

وقال البخاري أيضاً : حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال : اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة ، حتى قاضاهم على أن يقيموا بها ثلاثة أيام ، فلما كتبوا الكتاب كتبوا : هذا ما قاضي عليه محمد رسول الله ، قالوا : لا نفر بهذا ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً ، ولكن كتب محمد بن عبد الله . قال ﷺ «أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله» ثم قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : «امح رسول الله» قال رضي الله عنه : لا والله لا أمحوك أبداً ، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب «هذا ما قاضي عليه محمد بن عبد الله أن لا يدخل مكة بالسلاح إلا بالسيف في القراب ، وأن لا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه ، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها» .

فلما دخلها ومضى الأجل أتوا علياً فقالوا : قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل ، فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة رضي الله عنه تنادي يا عم يا عم ، فتناولها علي رضي الله عنه فأخذ بيدها وقال لفاطمة رضي الله عنها : دونك ابنة عمك فحملتها ، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر رضي الله عنهم فقال علي رضي الله عنه : أنا أخذتها وهي ابنة عمي . وقال جعفر رضي الله عنه : ابنة عمي وخالتها تحتي ، وقال زيد رضي الله عنه : ابنة أخي ، ففضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال «احالة بمنزلة الأم» وقال لعلي رضي الله عنه : «أنت مني وأنا منك» وقال جعفر رضي الله عنه «أشبهت خلقتي وخلقتي» وقال ﷺ لزيد رضي الله عنه «أنت أخونا ومولانا» قال علي رضي الله عنه : ألا تتزوج ابنة حمزة رضي الله عنه ؟ قال ﷺ «إنها ابنة أخي من الرضاة» فتردد به من هذا الوجه .

وقوله تعالى : ﴿فعلّم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ أي فعلم الله عز وجل من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عاممكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿فجعل من دون ذلك﴾ أي قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا نبي ﷺ فتحاً قريباً ، وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين ، ثم قال تبارك وتعالى مبشراً

للمؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه ، وعلى سائر أهل الأرض ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ أي بالعلم النافع والعمل الصالح ، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل ، فالعلم الشرعي صحيح ، والعمل الشرعي مقبول ، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل ﴿ليظهره على الدين كله﴾ أي على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومسلمين ومشركين ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ أي أنه رسوله وهو ناصره ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءٌ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجُ أَخْرَجَ سَطَكُمْ فَنازَرَهُ فَأَسَاطَلَتْ فَانْتَوَى تَلَى سَوْقِهِ يَجْعَبُ الزَّرْجُ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب فقال ﴿محمد رسول الله﴾ وهذا مبتدأ وخبر ، وهو مشتمل على كل وصف جميل ، ثم ثني بالثناء على أصحابه رضي الله عنهم فقال ﴿والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ كما قال عز وجل : ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار ، رحيماً براء بالأخيار ، غضوباً عبوساً في وجه الكافر ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن كما قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة﴾ وقال النبي ﷺ «مثل المؤمن في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحسى والنهس» . وقال ﷺ «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» . وشبك ﷺ بين أصابعه ، كلا الحديثين في الصحيح .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال ، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم ، وهو أكبر من الأول كما قال جل وعلا ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ وقوله جل جلاله : ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنها : سيماهم في وجوههم يعني السمات الحسن . وقال مجاهد وغير واحد : يعني الخشوع والتواضع . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا حسين الجعفي عن زائدة عن منصور عن مجاهد ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ قال : الخشوع . قلت : ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه . فقال : ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون . وقال السدي : الصلاة تحسن وجوههم ، وقال بعض السلف : من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ، وقد أسنده ابن ماجه في سنته عن إسماعيل بن محمد الصالح عن ثابت بن موسى عن شريك ، عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» والصحيح أنه موقوف . وقال بعضهم : إن للحسنة نوراً في القلب وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس .

وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفتلات لسانه ، والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه ، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله عز وجل ظاهره للناس ، كما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته . وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمود بن محمد المروزي ، حدثنا حامد بن آدم المروزي ، حدثنا الفضل بن موسى عن محمد بن عبيد الله العرزمي عن سلمة بن كهيل ، عن جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر» العرزمي متروك . وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قاله لو أن أحدكم يعمل في صحرة صباء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا زهير ، حدثنا قابوس بن أبي ظبيان أن أباه حدثه عن ابن عباس رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ قال «إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة» ورواه

أبو داود عن عبد الله بن محمد الثقبلي عن زهير بن زهير ، فالصحابه رضي الله عنهم خلصت نياباتهم وحسنت أعمالهم فكل من نظر إليهم أعجبه في سمتهم وهديهم . وقال مالك رضي الله عنه : بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون : والله هؤلاء خير من الخواريين فيما بلغنا ، وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة ، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة ، ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ﴾ ثم قال ﴿ ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه ﴾ أي فراخه ﴿ فأزره ﴾ أي شده ﴿ فاستغلظ ﴾ أي شب وغطال ﴿ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ﴾ أي فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ أزره وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ .

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله عليه ، في رواية عنه ، بتكفير الروافض الذين يغيظون الصحابة رضي الله عنهم قال : لأنهم يغيظونهم ومن غاظ الصحابة رضي الله عنهم فهو كافر هذه الآية ، ووافقه طائفة من العلماء رضي الله عنهم عن ذلك ، والأحاديث في فضل الصحابة رضي الله عنهم والنهي عن التعرض لهم بمساوئهم كثيرة ، ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم ﴾ من هذه لبيان الجنس ﴿ مغفرة ﴾ أي لذنوبهم ﴿ وأجرًا عظيمًا ﴾ أي ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً . ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل ، وكل من اقتضى أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم ، وهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة ، رضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس ماوئهم ، وقد فعل . قال مسلم في صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى ، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه . أخر تفسير سورة الفتح والله الحمد والمنة .

سُورَةُ الْحَجَرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَأَنْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن كَحَطِّ أَعْيُنِكُمْ وَأَسْمَعُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُعْضُونَ آصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفُورِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

هذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين ، فيها يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والاعظام ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ أي لا تسارعوا في الأشياء بين يديه أي قبله ، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ رضي الله عنه حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن وبم تحكم ؟ قال : بكتاب الله تعالى ، قال ﷺ ﴿ فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله ﷺ ، قال ﷺ ﴿ فإن لم ترضي رسول الله ﷺ . وقد رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه فالغرض منه أنه آخر رأيه ونظيره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة . ولو قدمه قبل البحث عنها لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ، وقال الهوفي عنه : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ، وقال مجاهد : لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه ، وقال الضحاك : لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم ، وقال سفيان الثوري ﴿ لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ بقول ولا فعل ، وقال الحسن البصري ﴿ لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ قال : لا تدعوا قبل